دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

القيادة.. والدور
خصائص العلاقة بين الدور والزعيم

أنا إن قدر الإله مماتي
لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي
ما رماني رام وراح سليما
من قديم عناية الله جندي
كم بغت دولة عليا وجارت
ثم زالت وتلك عقب التعدي

شاعر النيل حافظ إبراهيم

obeikan.com

obeikan.com

إذا كان التاريخ هو الذى يملى على دولة ما "دورها" . . فإن مصر ـ أقدم دولة كائنة فى العالم المعاصر ـ ومن منظور تاريخى وجغرافى هى بالدرجة الأولى "دور" . . وبمعنى أننا نؤثر فى التاريخ كما يؤثر فينا . . وإذا كان للتاريخ دور فى تكوين البنية الثقافية للشعوب، والأنماط والأنساق السياسية والاجتماعية والاقتصادية . . وإذا كان للتاريخ دور فى تشكيل الملامح الثقافية والوجدانية للشخصية القومية للإنسان المصرى . . فإن موجات التحديات الجبارة التى واجهت الأمة المصرية فى كل عصورها الحضارية المتعاقبة وحتى العصر الحديث تكشف عن حقيقة تأثر حركة الدور بالحاكم المصرى، صاحب السلطات المطلقة، والتى كانت تمثيلا أو تفويضا من الآلهة فى مصر الفرعونية، وقد كان الفرعون مطبوع بطابع دينى، فقد استطاع الكهنة أن يصبغوا الملك بصباغة دينية قوية، حينما صوروا للرعية أن أصل نبت الأسرة الفرعونية الحاكمة، هى غرس بذرته الأسرة الإلهية التى حكمت العالم أولا، ثم انبثقت منه تدريجيا الأسرة الملكية!! وفى العصر الحديث كانت سلطات الحاكم مطلقة ـ أيضا ـ ولا حدود لها، بداية من أول دستور وضع فى مصر سنة ١٨٧٦ ثم دستور ١٨٨٢ ودستور ١٩٢٣ ثم دستور ١٩٣٠ الذى ألغى بالأمر الملكى وأعيد العمل بالدستور ١٩٢٣، ثم دستور ١٩٥٦، ودستور ١٩٦٤، وقد وصلت السلطات الكثيرة إلى الذروة فى دستور ١٩٧١ فالحاكم المصرى يتحكم فعليا فى كل سلطات الدولة، يفعل ما يشاء، ولا يملك أحد أن يسأله عما يفعل!! ومثلا ـ وفى هذا السياق للحاكم الذى يفعل ما يريد ـ كان للرئيس المصرى السابق محمد حسنى مبارك، سياسته الخاصة، والتى لم تكن انعكاسا لإجماع الشعب، أو التعبير عن رأى الشعب، كما يقول السيد عمرو موسى، وزير خارجية مصر لعشر سنوات، طوال عقد

التسعينيات!! وبالضرورة فإن حركة الدور المصرى، بين الصعود والإنكماش، أو بين سنوات الرخاء والنهضة والريادة المصرية، وسنوات الاضمحلال والانكفاء داخليا.. تأثر بوجود قيادات من حجم عادى وكفاءة عادية، أو زعماء وقادة على وعى بالحقائق التاريخية، وبأحكام وضرورات دور مصر، وكفاءة استيعاب آمال الأمة فى لحظة تاريخية معينة.. قيادة لديها رؤية ومقدرة على الاتصال بحقائق التاريخ وأحكام الجغرافية.. وفى كل الظروف الطارئة والجارحة كان "الدور" هو الذى يصنع "الرجال".. يدفع أمامه بالقيادة، ليتولى مهمة التصدى للتحديات الجبارة، ويعيد تصحيح مسار التاريخ.. حدث هذا على امتداد التاريخ المصرى.. وفى مصر الفرعونية وثق الأحداث والوقائع الدكتور ناصر الأنصارى فى (موسوعة حكام مصر):

مثلا.. فى عصر الاضمحلال الأول (حوالى ٢١٨٠ ـ ٢٠٦٠ ق.م) حين سادت الفوضى، وعم الاضطراب وانحدر الفن.. تمكن أمراء طيبة أن يوحدوا البلاد ثانية وينهضوا بها، لتبدأ مرحلة جديدة باهتمام الملوك بالسياسة الخارجية، وسيطروا على النوبة السفلى، ونفذوا مشروعات ضخمة.

وفى عصر الاضمحلال الثانى (حوالى ١٧١٠ ـ ١٥٦٠ ق.م) حين وقعت مصر تحت احتلال الهكسوس ١٥٠ سنة وقد ساعد وجود الهكسوس على أن يجعل من الشعب المصرى للمرة الأولى فى تاريخه شعبا محاربا منتصرا فى سبيل الحرية بقيادة أمراء مدينة طيبة "سقنن رع" وابنيه "كامس" ثم "أحمس".. وحطموا كل ما يمت للهكسوس بصلة حتى يتم محو ذكراهم من النفوس، ولا يبقى لهم ذكر.. وبعد حرب

التحرير دخلت مصر فى طور حربى عظيم، وتم وضع حجر الأساس لإمبراطورية كبرى امتدت من سوريا وأعالى الفرات إلى الشلال الرابع فى السودان.. وأقيمت المعابد الهائلة مثل الكرنك والأقصر، وعاشت البلاد فى أزهى مظاهر الرفاهية والفن والعلوم والتجارة.

وإذا كان فرعون مصر "أحمس" ـ ١٥٩٠ ـ ١٥٤٥ ق.م ـ قد تصدر المجموع فى مواجهة تحديات عسكرية، وأعطى لأمته يقينا متجددا بأنها قادرة على تصحيح الأوضاع وتحرير البلاد من الهكسوس، وأن ينجز بهذه الحركة مهاما كبيرة على أرض مصر وحولها.. فإن الصورة الأخرى للقيادة التى ارتبطت بدور مصر تتجسد فى "تحتمس الثالث" ويجمع المؤرخون على أنه أول قائد حربى فى التاريخ وضع خطة تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين، وكان لديه مجلس أركان حرب يتشاور معه فى وضع الخطط الحربية، وفى عهده سادت مصر وحضارتها فى إمبراطورية شاسعة الأرجاء، وعم الثراء والرخاء البلاد.. وكان يتمتع إلى جانب عبقريته العسكرية بشخصية قوية تتميز بالنبل الرفيع والعدالة والتدين والصدق، وكانت سياسته الداخلية تقوم على إقرار النظام ورفاهية الشعب..

وفى عصر الاضمحلال الثالث (من ١٠٨٥ إلى ٣٣٢ ق.م) انفصلت عن الإمبراطورية المصرية معسكراتها فى الشمال والجنوب، وطمع فيها جيرانها الليبيون، وملوك النوبة، وطمع فيها الفرس.. وراحت محاولات السيطرة على مصر تتعثر، وكانت روح الاستقلال الوطنى يقظى وتدفع إلى المقدمة بقيادات تستوعب حلم الأمة وتحرك هممها وتجسد إرادتها: "بسماتيك الأول" وقد تمكن من طرد ملوك النوبة وامتاز

عصره بحركة إحياء التقاليد الفنية للدولة القديمة وتشجيع التبادل التجارى مع الإغريق بعد أن استعان فى حربه بفرقتين إغريقيتين.. و"أميرتى" وكافح ست سنوات حتى تمكن من انتزاع السلطة من الفرس الذين حكموا مصر ١٢٤ عاما.. وظل حكام مصر فى حروب دائمة مع الفرس.. وقاد "نقطانب الأول" حركة الثورة الشعبية وحرر مصر من حكم الفرس.. ولكن لم ينته الصراع على دور مصر..

وحين نتحدث عن دور القائد أو الزعيم (الحقيقة المحدودة) فإننا فى الواقع نتحدث عن دور مصر (الحقيقة الأكبر) عن أساس الحركة التاريخية كلها التى تتجاوز كل القيادات والأفراد الذين تصدروا المقدمة بإرادة صلبة وقدرة على الحشد وفى وقت أزمة أو محنة عارضة.. ولكنهم بالضرورة لم يصنعوا دور مصر، وإنما كان دورهم فى حماية هذا "الدور" وحركته التاريخية، واتساع حدوده، وفرض نفوذه وتأثيره، وأن تظل روح مصر يقظى فى كافة المجالات السياسية الاقتصادية الاجتماعية..

حسابات دور مصر أكبر وأعقد من ذلك.. وهذا لا يقلل من قيمة دور القائد أو الزعيم التاريخى حتى لو كان المرجع الذى يستند إليه هو دور مصر.

. . . .

. . . .

والشاهد.. أنه على مدى أكثر من خمسة آلاف عام، وجدت مصر بحدودها الجغرافية المعروفة تقريبا، وعليها شعبها، وكانت لها حكومتها دون انقطاع فى أى حقب تاريخها، ومما اقتضى خلق حقائق جديدة تتسق

مع التاريخ.. وأن التفاعلات التاريخية والحضارية جعلت شعب مصر واحدا من شعوب أمة كبيرة يربطها نفس المستقبل ويجمعها نفس المصير.. وهذا هو سر انتصار مصر، وسر هزيمة أعداء لها كانوا أقوى منها..

وحين اجتاحت جيوش "الفرس" مصر للمرة الثانية فى نهاية حقبة آخر فرعون مصرى "نقطانب الثانى" ٣٥٩ ـ ٣٤١ ق.م وأنهت حكمه.. كان التنازع على السيادة بين الإغريق والفرس يدور حول قواعد الدور المصرى ـ الموقع والثروة ـ وكان الإغريق يجتهدون فى الانتقام من عدوهم التقليدى، وكل منهم له عقيدة اجتماعية تتصادم مع عقيدة الآخر، وهذه العقائد مسلحة وتدفع بالجيوش أمامها.. ولم تكن المواجهة بعيدة عن موقع مصر حين دخل الأسكندر ٣٣٢ ق.م، وأسس مدينة الأسكندرية، وأمر بأن تتخذ عاصمة لمصر.. وبرؤية القائد الإغريقى الشاب أن تكون الأسكندرية مقدمة الدولة التى لها دور، فى مواجهة المدن اليونانية على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط.. وكان على وعى فى زمن ما قبل التاريخ أن قوة مصر الأساسية فى دورها.. ويقول المؤرخون: أنه كان مغرما بالبحث عن سر "روح مصر" حتى لو كانت فى قبضة الآخرين!! وكان الأباطرة الرومان ـ أيضا ـ بعد حكم البطالمة، على وعى بحقيقة أن مصر تتمتع بموقع جغرافى هام وبثروة طائلة خاصة بالنسبة لروما التى كانت تعيش على قمح مصر.. لذلك وضعوا لمصر نظاما خاصا متميزا عن الولايات الأخرى، فكانت تتبع الإمبراطور مباشرة، وكان حاكمها ذو مرتبة أرفع من باقى حكام الولايات..

كانت قوة مصر الأساسية فى الموقع.. فى دورها.. وما يمكن أن

تقدمه لمن يتولاها كقاعدة عسكرية اقتصادية كبرى..

والدور ليس ماديا ملموسا، وليس مرئيا، ولكن حساباته هائلة.

وكان سر "روح مصر" الغالب، أن كل من وفد إليها طوال تلك السنوات من عمر التاريخ، لا يستطيع أن يغترب فى مصر، بل يصبح جزءا منها بالواقع، حتى وإذا لم يكن جزءا منها بالطبيعة.. وكان الزمن نفسه يسمح لمصر بما لم يعد يسمح به لغيرها، وهى تحت حكم الآخرين نحو ٩٧١ عاما..وحين قضى الشعب المصرى قرابة ٣٠٠ عام تحت حكم البطالمة و٣٥٣ عاما تحت حكم الرومان، واستمر العصر البيزنطى نحو ٣١٨ عاما.. وحتى حين تحولت مصر من إحدى ولايات إمبراطورية بيزنطة إلى إحدى ولايات الدولة العربية الإسلامية.. ثم حين كان حكام مصر يتمتعون فيها بشبه استقلالية عن دولة الخلافة الإسلامية، مثل العصر الطولونى، والعصر الإخشيدى، والعصر الأيوبى.. أو تلك الأوقات التى كانت فيها مصر دار خلافه مثل العصر الفاطمى، أو العصر المملوكى عندما تمت استضافة الخلافة العباسية فى القاهرة بعد انهيارها تماما فى بغداد ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ووصل إلى القاهرة بدعوة من ركن الدين بيبرس أول خليفة عباسى يؤسس حكمه فى القاهرة "أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر العباسى" وكانت للخلافة العباسية فى مصر دور مظهرى ولم يكن يتدخل فى تصريف شئون البلاد، وأصبح كل عمله إسباغ السلطة الدينية على سلاطين المماليك لتوطيد دعائم ملكهم!!

. . . .

ورغم الأوضاع القلقة التى كانت تواجهها مصر، وتحدث هزات

وخلخلات عند قوائم المجتمع.. لم يغب عن مماليك مصر الوعى الاستراتيجى بدور مصر، أو بأحكام الموقع والتراث الحضارى، وأن هذا " الدور " له حلم عربى يشترك فيه بالانتماء مع شعوب الأمة العربية الإسلامية.. وبرز دور الفرد التاريخى من بينهم حين أبلى "قطز" بلاء حسنا لصد موجات التتار عن الأمة، وانتصر عليهم.. وكان "بيبرس" من أعظم سلاطين المماليك إذ اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية، وأقام النظم والقواعد التى أدت إلى تقوية أسس "موقع" مصر.. وإذا كان "الأشرف بن قلاوون" قد اهتم "بالموضع" وعنى بشئون مصر الداخلية وتسهيل سبل التجارة الداخلية، وإعداد جيش قوى.. فإن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان أكثر اهتماما "بالموقع" وبالأحلام الواسعة بعد أن فتح أخيه "الأشرف خليل" عكا، وحرر صور وصيدا وبيروت وطرطوس من أيدى الصليبيين، وبسط نفوذه وسيادته على الأقطار المجاورة حتى وصل إلى مكة والمدينة، وأقيمت له الخطبة فى مصر وسوريا وطرابلس الغرب..

. . . .

. . . .

وفى كل الأحوال كان المناخ العام للدور ـ دور مصر ـ يمهد لدور الرجال..

وكانت مصر فى كل هذه المراحل من تاريخها مهيأة لدور الزعيم أو القائد أو الرجل الذى يستوعب آمال أمته فى لحظة تاريخية معينة.. دور من يستجيب لداعى التاريخ.. وبكل مزاياه وبكل نواقصه..

وهذا ما حدث ـ مثلا ـ مع "محمد على باشا" فى لحظة تاريخية صاحبت جلاء الحملة الفرنسية عن مصر بعد بدايتها بثلاثة أعوام وشهرين، وحين تنازعت السلطة فى مصر آنذاك ـ كما يقول المؤرخ عبدالرحمن الرافعى ـ ثلاث قوى مختلفة المصالح: تركيا والتى فتحت مصر بحد السيف قبل ثلاثة قرون، فأرادت أن تبقى مصر كإحدى ولايات السلطنة العثمانية.. ثم إنجلترا والتى كانت تطمع فى احتلال المواقع الهامة على شواطئ مصر فى البحرين المتوسط والأحمر لتضمن لنفسها السيادة فى البحار، وتأمين طريقها إلى الهند.. والقوة الثالثة "المماليك" والذين سبق لهم حكم مصر قبل الفتح العثمانى، وكانت لهم قوة لا يستهان بها إبان الحكم العثمانى نفسه..

والقوى الثلاث تجاهلت ـ فى تنازعها على السلطة ـ العامل القومى، ولم تحسب حسابه، لكن رجلا واحدا أدرك مدى تأثير هذا العامل لمن يستعين به.. وهو "محمد على" قائد الكتيبة الألبانية فى الجيش التركى فى مصر.. فتقرب إلى القوى الوطنية الشعبية، وفى ١٧ مايو ١٨٠٥م وصل محمد على بفضل إرادة القوى الشعبية فى مصر إلى منصب الوالى، ولم يجد الباب العالى ـ فى تركيا ـ أمامه إلا إصدار فرمانا بذلك..

وربما كانت مصادفة تاريخية أن يأتى الرجل إلى السلطة بقرار شعبى.. لا بالوراثة، ولا بالانقلاب.. ولكن بتفويض شعبى من ممثلى القوى الوطنية الشعبية فى مصر.. وهو مدرك تماما فى هذه اللحظة التاريخية بأحكام الجغرافية والتاريخ وعقيدة مصر الاستراتيجية، وأن مسار التاريخ وحركته أعطيا هذا الوطن الفرصة ليكون قوة أكبر من مجرد

خطوط حدوده.. وأن دور مصر يستمد تأثيره مما حوله وبالانتماء إلى ما هو أكبر من مجرد حدوده.. وأن دور مصر يخلق منها قوة عالمية بمكانتها كقوة إقليمية مؤثرة فى ما حولها.. وأعتقد أنه كان مؤمنا بأن دور مصر.. قدر تاريخى.. وأن الأقدار التاريخية تحتاج إلى رجل تاريخى.. فبدأ تدشين نهضة مصر الحديثة وإعادة بناء قوتها الذاتية عسكريا وعلميا، وتنظيم الإدارة والأمن، وتأسيس أكبر حركة إصلاح اقتصادى، وتنوير ثقافى.. ثم اتجه مع أحلام الدولة العربية الكبرى إلى خارج حدود مصر، وأرسل جيشه إلى الحجاز فاستولى عليها، ثم استولى على النوبة جنوبا، وعلى جزيرة كريت، ثم فلسطين والشام، وعبر جبال طوروس، وكانت أحلامه تستند إلى حقيقة أن مصر هى القوة المحلية الوحيدة القادرة على تحدى المطامع المرسومة للمنطقة بعد تحلل الدولة العثمانية..

وبرز دور مصر فوق قاعدة تأسيس لدولة حديثة قوية، ومع التفوق العسكرى.. ولكن هذه الانتصارات خارج حدود مصر، وملامح النهضة الحديثة داخل حدودها، جعل القوى الدولية الطامعة تتحسب للخطر القادم.. وحاصرت محمد على وضيقت عليه الخناق، ثم استطاعت ضربه وفرضت عليه معاهدة ١٨٤٠ وهدفها إبعاد مصر عن المشرق العربى، وتحجيم دورها، بأن تكون مصر جزءا من الدولة العثمانية، وأن تدفع الجزية سنويا للسلطان، وألا يزيد جيشها عن ثمانية عشر ألفا، وألا تبنى سفنا حربيا!!

....

وحين اختل التوازن الاجتماعى فى مصر، وتصدع البنيان الاجتماعى والاقتصادى فى ظل أجواء من الفساد السياسى.. وحاصرت الشعب

المصرى ثلاثية الفقر والجهل والمرض، ومع نهب حقوق "الحفاة" من سكان القرى والنجوع والأقاليم النائية.. وترهلت مؤسسات الدولة تحت سطوة مصالح أصحاب الثروة والنفوذ، وهشاشة سلطة الملك فاروق الذى انصرف عن التفرغ لشئون الدولة.. وأحاطت شبهات الفساد والخلل الإدارى بالجيش المصرى، ومع تحكم سلطات الاحتلال البريطانى فى موارد ومصير البلاد التى ظلت محتفظة باستقلالها غير الكامل عن بريطانيا، وانتشرت الفوضى.. وكانت الأوضاع العامة للمنطقة العربية تتحكم فيها وفى شعوبها سطوة إمبراطوريتين كبيرتين: بريطانيا وفرنسا، ووراؤهما الولايات المتحدة الأمريكية تؤيد وتدعم وعند اللزوم تتقدم..

وفى هذا الإطار الحديدى من سطوة وسلطان قوى السيطرة الأجنبية، ومعاناة تردى وتدهور الأوضاع الداخلية.. كانت مصر مهيأة تاريخيا لدور الفرد التاريخى، القائد أو الزعيم.. رجل له خصائص وموارد إنسانية وكفاءات شخصية تتيح له أن يستوعب آمال وتطلعات الآخرين من مجموع الشعب، وأن يتولى مهمة تحقيق مجموعة أهداف مشتركة.. وهنا برز دور جمال عبدالناصر، رجل استوعب حلم الأمة، وجسد إرادتها، وحرك هممها، وأعطى أمته يقينا متجددا بأنها موجودة.. وأصبح الرجل رمزا لتيار عريض ممتد عبر كل الحدود السياسية فى العالم العربى.. وكان الرجل بالطبع ـ مدركا وبوعى استراتيجى لعبقرية الموقع وبأحكام الدور المصرى، وبضرورات وحتمية الارتباط وبالانتماء للموقع الأكبر، للعمق الاستراتيجى العربى وعلى امتداد ساحة من المحيط إلى الخليج، ودون إغفال للأهمية الاستراتيجية للدائرتين الإفريقية والإسلامية.

وكانت تجربة عبدالناصر كما يقول الأستاذ هيكل (كتاب حديث المبادرة) أمام مجموعة اختيارات اجتماعية وسياسية ودولية.. فى الداخل كان الاختيار طريقا عربيا إلى نوع من الاشتراكية، وهو الخيار المتاح لبلد كان متوسط الدخل القومى للفرد فيه حوالى ٤٧ جنيها فى بداية التجربة ـ وإذا تذكرنا التفاوتات البشعة فى توزيع الدخول وقتها أدركنا حجم المشكلة الاجتماعية بعد المشكلة الاقتصادية ـ وترتب على ذلك خط معين فى التنمية الشاملة استطاع على سبيل المثال فيما بين سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٦ أن يعطى زيادة سنوية فى الدخل القومى بمعدل ٦,٧ فى المائة طبقا لتقرير البنك الدولى بتاريخ ٥ يناير ١٩٧٦، وهى نسبة لم يكن لها مثيل فى العالم النامى كله.. وإذا وضعنا هذه الزيادة أمام مشهد التحولات الاجتماعية الضخمة التى عايشتها مصر فى الستينيات لرأينا صورة عظيمة لشعب يبنى حياته من جديد بعمله وجهده، خاصة إذا ذكرنا أنه فى تلك الظروف لم تكن مصر تطلب من أمتها العربية عونا، ولا كانت تلك الأمة ـ بصراحة ـ قادرة على مد يد العون إلى مصر، بل ربما كان العكس هو الصحيح.

ولقد امتزجت التجربة الداخلية المصرية مع مطالب الأمن العربى الشامل، فأملت على مصر فى ذلك الوقت سياسة خارجية معينة اختارت طريقا مستقلا، ولا منحازا فى المجال الدولى، وتمكنت من بناء توازن إقليمى وعالمى استطاع تمكين مصر من قيادة قوى الدفاع عن المصير العربى، وانتصرت ـ أحيانا ـ كما حدث سنة ١٩٥٦. ولم تنتصر أحيانا كما حدث سنة ١٩٦٧. وكان معيار أصالة الالتزام المصرى أنه فى النصر لم يتكبر وفى غير النصر لم يتخاذل، وإنما راح يحشد جهده

ويعبئ قواه ويواصل مسيرته..

....

والشاهد.. أنه فى اللحظات التاريخية الحاسمة والمصيرية، كان "دور" مصر يمنح الشرعية لدور الفرد القائد أو الزعيم.. دور صانع القرار فى مرحلة تاريخية، يحدد خطوط استراتيجيتها العليا، مدركا لضرورات الأمن وضرورات المصالح القومية.. ولكنه يبقى مجرد مرحلة فى تاريخ طويل سابق، وفى تاريخ ممتد لاحق، ولكن تاريخ مصر لم يبدأ به ولن ينتهى به.. وطالما أن أحكام التاريخ والجغرافية هى أولى الثوابت.. وأن المعادلة الصحيحة للدور المصرى: عبقرية المكان وعبقرية الإنسان..

هكذا كان دور الرجل بفعل أحكام الجغرافية والتاريخ.. وبصرف النظر عن اعتبارات حيوية أخرى.

هذه هى الحقيقة..

وأتصور أننا مطالبون بأن نلقى نظرة جديدة على دور الرجال من حكام مصر وعلى مسرح الدور المصرى، وسوف نجد:

أولا: أن الحالة المصرية تختلف عن غيرها من دول وإمبراطوريات ارتبط دورها بزعماء فى مراحل زمنية متعاقبة.. عابرة، ومؤقتة، وهؤلاء الرجال خلقوا دورا لبلادهم وربما فتحوا أمامها أبواب مستعمرات خارجية وربما فتحوا أمامها طريقا للسيادة والنفوذ طوال حقب تاريخية محددة.. ولكن يبقى دور هذه الدول أو حتى الإمبراطوريات هو "صنيعة" أدوار زعمائها وأهدافهم ومطامعهم أو حتى تحالفاتهم الخارجية.. والدول التى

يعتمد دورها على دور الفرد القائد أو الزعيم تواجهها غالبا مشاكل اجتماعية حافلة بتناقضات ساخنة وحادة!! أما دور مصر فهو الذى يخلق ويحكم دور القائد أو الزعيم والذى يؤدى مهمته فى لحظة تاريخية قد تكون فاصلة استجابة لداعى التاريخ، ويستوعب بالضرورة أحكام وضرورات وحجم دور مصر الذى استقر بناؤه على ثوابت.

ثانيا: أن دور الفرد التاريخى فى مصر يجىء فى لحظة هى أقرب من الأقدار التاريخية.. خارج إطار التوقعات.. ولذلك كانت المتغيرات المفصلية فى تاريخ مصر أحداثا مباغتة للآخرين، وقد تحمل دهشة المفاجأة للشعب المصرى نفسه.. ودائما يأتى التوقيت والتنفيذ خارج أية احتمالات قائمة، وقد لا تنبئ الظروف والأحداث ـ فى زمنها ـ بإمكانية تحقيق ما يحدث من تغيير، وإعادة تصحيح مسار التاريخ المصرى.. وقد حدث هذا ـ مثلا ـ حين دخل الهكسوس مصر، وشيدوا عاصمتهم "أواريس" فى شرق الدلتا، واستمر احتلالهم حوالى قرن ونصف قرن من الزمان.. وتنطلق شرارة ثورة مصر ضد الهكسوس ويطاردهم "أحمس" ١٥٩٠ ـ ١٥٤٥ ق.م بعد أن هاجم عاصمتهم "أواريس" ويحاصر آخر معاقلهم "شاروهين" قرب العريش لمدة ثلاث سنوات ويحرر البلاد منهم، وتبدأ مرحلة جديدة لإمبراطورية مصرية عظيمة..

وحين تقدم المغول إلى الشام مستهدفين مصر فى النهاية والتى كانت تشهد صراعا على السلطة بين المماليك بعد وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وأدى الصراع إلى شبه فراغ لموقع السلطان مع مؤامرات العزل والنفى والسجن والقتل، وفى مقابل الأجواء القلقة غير المستقرة فى مصر كانت الخبرة القتالية الطويلة للمغول تتحفز لاقتحام مصر وفى ظل

الصراع الصليبى المستمر. . ولكن ما حدث. . أن تقدمت مصر المملوكية بقيادة "قطز" لتعطى المغول أول وآخر انكسار لهم فى عين جالوت التاريخية ١٢٦٠م. . وحتى حين تحولت مصر إلى ولاية فى الدولة العثمانية واحتفاظ المماليك بعصبيتهم، وقد عظم نفوذ وسطوة "البكوات" منهم وأصبحت "الجباية والاتوات" همّا ثقيلا على كاهل الشعب المصرى، وزادت حدة الأطماع فى مرحلة تمزق السلطة بين ثلاث قوى طامعة، لم يكن أحد يتوقع أن يكون هناك صوتا للقوى الشعبية المصرية التى أرهقتها سنوات من القهر والظلم. . ولكن العامل القومى كان حيا فى الوجدان المصرى، وترفع إرادة القوى الشعبية محمد على إلى منصب الوالى ، وتبدأ سنوات نهضة مصر الحديثة. .

. . . .

وحتى ما حدث فى ذلك المساء المتأخر من يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ كان خارج التوقعات حين قاد مجموعة من شباب الضباط الأحرار ـ بقيادة جمال عبدالناصر ـ وهم يدركون حجم المخاطرة المحيطة بهم، وحجم وسطوة الأطراف المؤثرة فى ذلك الوقت واللاعبة الأساسية فيه من القصر وأجهزته الأمنية وتساندها إدارة أمنية كبيرة، ومن السلطة الغالبة للاحتلال البريطانى لمصر وحشوده العسكرية، ومن الفعل النافذ لحركة وتحركات السفارتين البريطانية أولا ثم الأمريكية، وبالضرورة لم يكن يغيب عنهم ولاءات القيادات العليا فى الجيش للنظام، إلى جانب المصالح المتشابكة والمتوحشة بين السلطة وبين الطبقة النافذة والحاكمة بما تملك من إقطاعيات ومن عليها، ومن رؤوس أموال وما لها من سطوة ونفوذ فى البلاد، وهى تتحرك نحو الانهيار وأن الاتفاق العام بأنه لا أمل فى شىء فى مصر طالما

الملك فاروق موجودا..

وكانت هنـاك أهداف محددة وأحلام مشـتركة كمـا يقول د. ثروت عكاشة ـ وهو أحد الذين شاركوا فى صنع الثورة ـ لم نكن خلايا معزولة عن الشعب ولا عـن أمانيه، بل كنا أداته المحـققة لتطلعاتـه، وكانت لنا مبادئ لا يمكن أن تستخفى وراء الغـموض، بل كانت أكثر وضوحا من أن يختلف عليها اثنان، وما كـان من الممكن أن يخرج فى ليلة ٢٣ يوليو هذا العدد من ضباط الجيش مختلفى الاتجـاهات والميول السياسية حاملين رءوسهم على أكفهم وهم يسعون إلى أهداف غامضة إلا إذا كانوا نفرا لا يجمع بينهم رأى جامع بل يعشش فـى وجدانهم بله غريب!! إننا انطلقنا حاملين أهدافا ستة لا تمـثل برنامجا تفصيليا دقيقا لكـل منها لكنها كانت ترتكز على مفهـومين أساسيين هما تخليص الوطن من قـيود الاستعمار والاستغلال ورد الاعتبار إلى الشخصية المصرية.

. . . .

. . . .

واتصالا بما سبق

فإن دور الفرد التـاريخى ـ القائد أو الزعيم ـ داخـل موقع أقدم دولة كائنة فى العالم المعاصر ـ يأتى استجابة لضرورات وأحكام دور مصر..